Downloaded from: justpaste.it/ph6a

" رحلة خرسانية "

حملتُ روحي وحزمت أقلامي ودفاتري ، ويممتُ نحو خراسان .
الجميلُ في رحلتي أنها بلا حجزٍ ولا أمتعة
ولا أُطالَب في أثنائها بجوازات ولا تستوقفني حدود .
فالأرواح لاتعترف بحدودٍ مصطنعة ولا ترضخ لأنظمةٍ حادثة ، بل تُحلِّق حيث شاءت لايقف في طريقها شيء .
هبَطتُ في تلك الأرض
ألتفتُ يمنةً ويسرة ، في دهشةٍ أخّاذة !
أخذتُ نفساً عميقا علني أن أجد بقايا عبق العظماء الذين مضوا وهم على ظهر تلك الأرض !
أصابتني هزة فخرٍ وأنا أتأمل هذه الأرض القاسية والجبال الشامخة ثم أتأمل ألئك الرجال الذين أرعبوا أمم الكفر من أعالي تلك الجبال
فكدت أن أقف مفتخرا وهاتفا بمعلقة عمرو بن كلثوم
بدأت تلوح في مخيلتي صور رجال عظماء غيَّروا مجرى التاريخ ، كانت خطواتهم على هذه الأرض وسالت دماؤهم على ثراها
فهذا الشيخ عبدالله عزام ، وذاك مصطفى أبو اليزيد ، وذاك الحسينان ، وهنا الفقيد الشيخ أسامة بن لادن ، وعطية الله وأبو يحي وغيرهم وغيرهم
خنقتني العبرة وأنا أردد
وأذكرُ أيام الحمى ثم أنثني ،،، على كبدي من خشيةٍ أن تصدَّعا
وأنا غارقٌ في بحر ذكرياتي ، إذا به يربت على كتفي فانتبهت فزعا - لأننا أصبحنا في زمنٍ يُحاسِبُ على الخواطر الذهنية - حين رأيته تبسمت للقائه وحييته وأخذت أرمش بعيني محاولا إخفاء تلك الدمعة التي أصبحت في القنطرة فلا هي التي نزلت ولا هي التي بقيت !
حيَّا ورحّب بابتسامة صادقة ونفس كريمة
أمسك بيدي ومضينا نمشي في تلك الأرض الجبلية نصعد الجبال ونقطع الوديان
في آخر جبل صعدناه تمتمت بقول إقبال
كنّا جبالا في الجبال وربما ،،، سرنا على موج البحار بحار
وإذا بصوتٍ عمَّ صداه أرجاء المكان يجيبنا من قمة الجبل
لم نخشَ طاغوتا يحاربنا ولو ،،، نصبَ المنايا حولنا أسوارا
ندعوا جهاراً لاإله سوى الذي ،،، صنع الوجودَ وقدَّر الأقدارا
كنا نرى الأصنام من ذهَبٍ ،،، فنهدمها ونهدم فوقها الكفارا !
لا أدري أسمع صاحبي ما سمعته
أم أنه خُيِّل إلي
أم أنّ الجواب كان بلسان الحال .

استقرَّ بنا المقام في كهفٍ أحد الجبال ، تأملت وقلت لو كانت أجسادنا معنا لانقطعت أنفاسنا ولتشققت أقدامنا وسالت دماً جرّاء تلك الجبال الوعرة .
قدَّم لي فرشةً قد أكل الدهر عليها وشرب إكراما لي

وقال بابتسامة :

" هذه الحياة " !

ابتسمت وقلت : من هذه الأماكن وبهذه البساطة يزلزلون البيت الأبيض ويُعرّون تمثال الحرية المزعوم !

قدّم لي شايا وخبزا فهي وجبة إفطارهم .

فقلت له :

ياصاح دع غذاء الأجساد فقد تركناها

وهلمَّ بغذاء الأرواح فما أتينا إلا لها

"كرر عليَّ حديثهم ياحادي"

جلس مطرقا وبيده عود ينكتُ به الأرض

قائلا الحديث ذو شجون وأخبار القوم وسيرهم عطرة ، وأثرُهم على الأمة أشهر من أن يُذكر ، وأظهر من أن يُنكر

ثم استدرك قائلا:

صحيحٌ أن أشخاصهم ربما لايعرفها الكثير ولكن طيب فعالهم عمت أرجاء المكان

حتى تنشق عبير عزتهم كل مسلم منصف

قلت : حدثني عن أحد رجالهم

فكثيرا ما نسمع اسمه ولا نعرف رسمه

حدثني عن أبي دجانة

فرمقني ببصره قائلا : الشيخ ؟

فقلت : نعم ، الشيخ أبي دجانة البحطيطي .

فتنهد تنهد الموجوع

وكأنه يقول :

تذكرتُ والذكرى تهيجُ على الفتى ،،، ومن عادة المحزونِ أن يتذكرا

فقال :

هو محمد بن محمود البحطيطي

الشهير بأبي دجانة الباشا أو البحطيطي

من أرض الكنانة ، خالط قلبه حب الجهاد منذ صباه فنفر للجهاد عام 1991 وكان عمره قرابة العشرين.

ثم قال :

قليلٌ هم الذين يعرفون الشيخ ، ولذلك يصح أن نسمي الشيخ "بالقائد الخفي" ولذا كان له كثير من الإسهامات الخفية التي قلَّ من يعرفها ، وذلك عائدٌ لكراهية الشيخ للظهور مع صعوبة الظروف الأمنية ، فمن ذلك مثلا على سبيل المثال إسهامه وسعيه في تأسيس فرع شبه القارة الهندية ، وذلك بجمعه لكلمة الجماعات وحثها على الاتحاد ، فكان له الدور البارز في هذا ، والعجيب أن غالب مَن يعرف الشيخ إنما يعرفه بعلمه مع أنه لم يكن له علاقة بالعلم في أول نفيره ، بل كان متخصصا في التدريب العسكري ، ولذا فالشيخ جسمه رياضي والطريف أنه كان يلعب الملاكمة في أول حياته !

سألته مقاطعا : إذن فمن أين أتت شهرته العلمية؟

فقال : الشيخ كان من أهل البلاء فقد قدَّر الله عليه وأُسر في إيران بعد سقوط الإمارة ، وبقي في سجنه عدة سنوات ، وفي تلك الفترة انكبَّ الشيخ على طلب العلم واجتهد في طلبه حتى فتح الله عليه ، وكان أنيسه بعد كتاب الله تعالى هو "صحيح البخاري" وما يدور حوله من شروح ومختصرات بل حتى نتاج الشيخ العلمي كثير منه متعلق بالبخاري ، حيث قضى معه أجمل أوقات حياته كما كان يقول.

وقد فتح الله عليه في العلم حتى إن كثيرا من القيادات تعجَّبوا من بروز الشيخ في العلم بعد سجنه ، بل إن الشيخ أبا يحيى عرض عليه كثيرا ليكون مسئولا عن اللجنة الشرعية فرفض.

فقد كان يبتعد دائما عن الفتوى والقضاء ويتحرج في هذا كثيرا ، بل حتى في بعض الأمور الصغيرة كان يتهرب من القضاء فيها.

سألته كيف كانت طبيعة الشيخ ؟

فقال كان سهلا جدا وحريصا على إ خوانه حرصا شديدا وأذكر لك موقفا واحدا ينبيك عما بعده

كُلِّف الشيخ بتأمين خروج العوائل أثناء شن الجيش الباكستاني حملته على المجاهدين في وزيرستان ، فشمَّر الشيخ عن ساعد الجد وجدَّ واجتهد هو وبعض الإخوة معه ، وكان ينقطع عن أهله لفترات ويسهر على التخطيط والترتيب للحرب ولتأمين العوائل ، وبالفعل تم بفضل الله تأمين غالب العوائل والأرامل ، ولم يبق إلا القليل ، وكانت القصوفات على أشدها في ذلك الحين ، وأصبح الوضع حرجا للغاية وأحس الإخوة بخطورة الوضع عليه وعلى عائلته فطلبوا منه الخروج من دائرة الخطر سيما أنه قد خرج غالب العوائل ، فكان جوابه

"لن أخرج حتى تؤمن آخر عائلة"

ولك أن تتخيل أن هذه همة الشيخ وهو مبتور القدم !

هنا انتبهت لهول الصدمة وقاطعته قائلا:

مبتور القدم؟

فقال : نعم ولبتر قدمه قصة.

فاعتدلتُ في جلستي وأنا أزداد تعجبا من أخبار هؤلاء القوم

وقلت له وما قصة بتر رجله؟

فقال :

بترت قدم الشيخ قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر بعدة سنوات ، وذلك أنه أُصيب في كابل خلال قتال المجاهدين لتحالف الشمال بقيادة أحمد شاه مسعود ، حيث كان يرمي بالهاون فجاءته قذيفة وسقطت بقربه وكانت الإصابة شديدة في رجله ، حيث تهشمت ركبته بل إن رجله انقطعت ولم يبق إلا جزء يسير ظل يربط رجله بجسمه ، فنقله الإخوة ليسعفوه وكان ذلك في وقت اشتداد المعركة ، يقولون أنه لم يكن يُسمع من الشيخ وقت إسعافه إلا ذكر الله ، وكان ممن نقله أخ يكنى بأبي عمر المكي وهذا الأخ أثناء حمله للشيخ صدرت منه حركة غريبة فالتفت له الأخ الذي كان يحمل الشيخ معه ، فقال له ما بك؟ فقال لا بأس رصاصة من الخلف دخلت قريبا من رقبتي ، ومع ذلك صبر وتجلّد وبقي يحمل الشيخ إلى أن أوصله للسيارة!

لما وصلوا للمستشفى ، انشغل الأطباء بمباشرة ومعالجة الجرحى ، فلما انتهوا جاء أخ باكستاني ممن كان يحمل الجرحى ، وقال لأحد الأطباء أُصبت برصاصة فهل تستطيع علاجي؟! فبُهتَ الطبيب وقال له لماذا لم تخبرني من أول الأمر ، فأطرق الأخ ولم يجب ، وكأنه أراد أن يؤثر إخوانه !

انتبه صاحبنا أنه قد خرج عن الموضوع ، فاعتذر مني قائلا : اعذرني على الاسترسال "فحديثهم يجلو الفؤاد الصادي"

فقلت له ليتك تستطرد أكثر من استطرادات ابن تيمية العقدية

فتبسم وأكمل حديثه عن الشيخ قائلا :

مباشرة زار الشيخ العديد من القيادات في المستشفى كالشيخ أسامة والشيخ أبي حفص "الكومندان" وسيف العدل وغيرهم من القيادات.

وتشاور الإخوة مع "وزير التشريفات" في حكومة طالبان - و وزير التشريفات يعتبر المنصب الثاني في وزارة الخارجية أي بعد الوزير تقريبا - تشاوروا في بتر رجل الشيخ ، فعرض عليهم الوزير السعي لمحاولة تسفيره لبعض البلدان ، فقال الأطباء إن حالته لا تحتمل التنقل وربما أودت بحياته ، وبعد المشورة والنظر في حالة الشيخ قرر الأطباء بتر رجله من فوق الركبة!

و لما زاره الشيخ أسامة في المستشفى بعد بتر رجله قال له : أعدك أني سأزوجك !

قال صاحبنا :

وكان هذا من أغرب الزواجات ، فالزوج قائد، والذي سعى في زواجه قائد بل هو أمير التنظيم الشيخ أسامة ، والبنت مهاجرة ، ووالد البنت قائد إنه أمير التنظيم الحالي الدكتور أيمن الظواهري!

وفعلا بعد فترة بسيطة خطب الشيخ أسامة لأبي دجانة من ابنة الدكتور أيمن ، فتم الزواج على بركة الله.
وقد بقي أثر صدمة الإصابة على الشيخ حتى آخر حياته.
يحدث بعض من صحبه في آخر حياته أنه أثناء النوم كان أحيانا يستيقظ فزعا صارخا ، فكان كلما فعل ذلك اعتذر من الأخ وقال سامحني يا فلان فأنا من بعد الإصابة إذا أُرهقت ونمت لابد أن أصحى وأصرخ لأنه كانت تأتيه الأحلام بالإصابة فيظن أنه أصيب الساعة !

هنا استأذن صاحبنا لقضاء حاجةٍ عرضت له فأذنت له .
ثم أخذت أتأمل في كلامه
كم ازدادت نقمتي على علماء السوء الذين سلَّطوا ألسنتهم على هؤلاء القوم الأطهار.
كم غضبتُ على أقوام يبيت ليله آمنا ثم يستيقظ ويتكئ على أريكته ويبدأ في نقد المجاهدين وتجريحهم وتخطئتهم بل ولمزهم وهمزهم وهو لم يطلع على واقعهم بل ولم يتصور ظروفهم وإمكانياتهم.
كم هو الخجل أن يكون مبتور القدم في ساحات الجهاد وأن يكون الصحيح المعافى متأخرا مسوِّفا.
قطع حبل أفكاري خطوات صاحبنا قادما
قال مكملا حديثه :
الشيخ كان نشيطا قبل الإصابة وبعدها
يحدث بعض مَن صحبه في آخر حياته يقول :
كنا ننام من شدة التعب والسهر
فكان يوقظنا ويصنعُ لنا القهوة حتى يجافي النوم عن أعيننا ونكمل معه العمل وننهي المهام ، فلم يكن ثم نوم إلا سويعات من نهار ، لأن الليل كله كان يقضيه في العمل !
قلت له : اذكر لي بعض مواقفه
فقال :المواقف كثيرة والذاكرة لا تُسعف
ولكن أختم لك بهذا الموقف
كان الشيخ عليه دين بسيط جدا ، فقد استدان مبلغا ليشتري به مذياع " راديو " ليطَّلع ويعرف من خلاله الأخبار لأنها الوسيلة الوحيدة ، وقد كان باستطاعته أن يطلب من المسؤول المالي أن يوفره له سيما وأنه قائد ، لكنه آثر أن يستدين ليشتريه ولا يطلبه ، ولك أن تتصور
ك
م
م
قيمة المذياع التي جعلته يستدين لتعرف كيف كانت حاجتهم و زهدهم.
هنا ندَّت من عيني دمعة ، وقلت في نفسي صدق الله حين قال "من كان يريد العزة فلله العزة جميعا" هؤلاء القوم الذين يستدين أحدهم قيمة جهاز "راديو" يرعبون القوى العالمية العظمى ، وبخطاب تهديد منهم يؤثرون على الاقتصاد "والبورصات" العالمية!
انتبهت لصاحبي وإذا به مسترسلا في حديثه يقول :
كان تقريبا في كل جلسة يذكِّرُ جلاّسه بدينه ويقول لو قُتلت فخذوه من أهلي!
لم يكن للشيخ مصدر دخل غير الكفالة التي كانت تُصرَفُ له ، وفي فترة من الفترات صُرف لهم كفالة ستة أشهر دفعة واحدة ، فاستطاع الشيخ أن يقضي دينه ، وقال لمن معه بكل فرح وسرور لقد قضيتُ ديني
وكان ذلك قبل مقتله بليلة واحدة!!
حيثُ قتل الشيخ بقصف للطائرات الجاسوسية في بداية ذي القعدة 1435.
حيث إن حركة الشيخ في آخر أيامه قد كثرت على غير المعتاد ، وذلك لما أُنيط به من أعمال ومهام كتأمين العوائل والإخوة ، ومباشرة إدارة العمل العسكري وغير ذلك مما تسبب بشكل رئيسي في مقتله ، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

وقد كانت زوجه مثالا للزوجة الصابرة المحتسبة فلله درها وعلى الله أجرها ، صبرت على البلاء والهجرة وشظف العيش ، ولا غرابة فإنها تربية شيخ المجاهدين الدكتور أيمن.

ثم رفع يديه مبتهلا وداعيا للشيخ ولأهله :

اللهم تقبل الشيخ أبي دجانة وارفع درجاته في عليين.

اللهم كن لزوجه وولده من بعده ، اللهم كن لهم عونا ونصيرا ومؤيدا وظهيرا ، اللهم اجعل لهم من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا ومن كل بلاء عافية.

ثم قال :

وهكذا طويت صفحة الشيخ بعد قرابة العشرين عام من البذل والهجرة والجهاد والبلاء حيث قتل وهو في بداية الأربعين، وخلّف وراءه ذكرى عطرة وتاريخا حافلا ونتاجا علميا لا بأس به

فله :

تيسير الباري شرح مختصر صحيح البخاري لم يُطبع بعد.

وله تحقيق لمختصر صحيح البخاري للزبيدي مع تفسيرٍ لغريبه ، وله حكم هدايا العمال والمختصر في أحكام وآداب السفر وغيرها.

ثم استأنف قائلا

هذه غَرفةٌ يسيرة من تاريخ الشيخ تقبله الله.

ولما رآني أطرقت حزنا على مقتل الشيخ

قال :

لإن كان قد قتل منا الكثير من القادة ، فقد أبقى الله للصليبيين ما يسوؤهم

فانظر لهم على رأسهم حكيم الأمة بقية الرعيل الأول الوالد الشيخ أيمن الظواهري ، وبقية القادة الريمي وعبدالودود والجولاني ، بل إني أتفرس وجوها شابة سيكون لها مستقبلا حافلا وتاريخا مشرقا وسيُجرّعون الصليبيين العلقم بإذن الله ، فدين الله منصور لامحالة .

شدَّت كلماته من عزيمتي وقمت مودعا له على أمل أن ألقاه في رحلة خرسانية أخرى ليحدثني من أحاديث القوم .

وهنا حلّقت بروحي بعيدا بعيدا

وأتيت لأكتب لكم بعض رحلتي لعلي ببعض كلماتي أحلق بكم في عالم ألئك العظماء .

بقلم / عبدالسلام العثمان

٢٢/٢/١٤٣٧